عرس.. في الخنادق

بقلم احمد سويد

لم تكن الغاية من زيارتي له ان اواسيه واشدد من عزيمته فأنا أعرف أنه ليس بحاجة الي ذلك ، لان رصيده من الايمان بقضيته يكاد يجعله فوق الضعف البشري ، وفوق عتو النكبة ، ولكنني حين زرته في المستشفى كنت اشتهي ان اسمع قصته وان اسمعها من فمه هو بالذات .

... وتململ ابو خلدون في سريره حين شددت يده ، ونظر الى رجله المرفوعة الى أعلى ، ثم انزلق بصره الى الكتلة الحديدية الثقيلة المدلاة منها ، وتلفت الي وهو يغرز اسنانه بشفته السفلى ويغمغم :

ــ أما كان أهون علي لو قطعوها ؟

... وكأنما احس في كلماته هذه نوعا من الضعف والتشكي ، اوخروجا فظا على تقاليد الاستقبال ، فبتر جملته وابتسم لي برقة :

ــ يا هلا بالجار يا هلا :

.. وغالت دمعة كانت تأخذ طريقها الى اجفاني ، ورحت أبحث في رأسي عن كلمة عزاء ، عن كلمة تستطيع ان تشعره بمشاركتي الوجدانية له ، ولكنه لم يمهلني بل رشقني بنظرة فيها شرود الحالم ، وحنو الاب ، وقال بصوته الاجش المثقل بالشجن المتمرد :

ــ ليتك كنت هنا ... يوم عرسه ، لترى اي وهج كان يشع من عينيه ، ويطفح من ملامحه . لقد استيقظ يومها مبكرا ، وطرق الباب علي ثم دخل .

جلس الى جانب سريري وراح ينكت الارض ببصره ، ثم لم يلبث بعد صمت قصير ، ان قال وفي صوته رعشة خجل :

«ــ يا ابتي ... الحقيقة التي اخفيتها عنك طوال نصف شهر ، آن لك اليوم ان تعرفها . لقد تدربت على حمل السلاح وقضي الامر ، ولم يعد هناك ما يمنعني من الاشتراك الفعلي في اعمال المقاومة .

صحيح أنك والدي ، ومن حق ابوتك على ان تدخرني لغدك ، لشيخوختك ... ولكن شعورك الوطني ...

وصمت خلدون ولم يكمل . صمت ، بعد ان اثار في داخلي أعتى صراع عرفته في حياتي .

وبسرعة تمثلت لعيني الجرائم التي يرتكبها الشمعونيون في طرابلس وصيدا وصور والشوف . تذكرت كيف يضربون ابناء الشعب بالشعب ، تذكرت معركة البارحة عندما أغاروا على حينا ، واصطادوا ثلاثة من المارة العزل ، بينهم طفل دون العاشرة .

قلت في نفسي : هؤلاء الذين يفعلون ذلك لا يمكن ان يكونوا منا .

صحيح أني انسان بسيط ، مجرد معلم ابتدائي ، لم تعلمني الحياة كيف اتفلسف ، ولكنها علمتني كيف احب وطني ، علمتني ان الكرامة أثمن شيء في الوجود ، وان الحرية ليست الا هواء للتنفس ، وان الشعب الذي لا يتوفر هذا الهواء لرئيته ... لا بد ان يذوي ويموت . وعلمتني كذلك ان الحكام الذين يشتريهم الاجنبي انما يشتري فيهم ضمائرهم وحسهم الوطني ، يشتري فيهم انسانيتهم . ينتزع هذه الاشياء الثمينة كلها من نفوسهم ثم يسحقها

وتعودان بومضة ثغر ..
هل هذا العالم الا ومضة ثغر ..؟

***

سأراك غدا ..
وبقلبي اغنية لم انشدها لك بعد ..
اغنية الجيل الزاحف نحو القمه ..
اغنية من لفح ليالينا الجهمه ..
من لفح نضال نصنع فيه الغد ..
انا والمجد على موعد ..
الدرب اتضحت للسارين ..
وتكشف لون المنحدرات ..
من كل خنادقنا الرحبه ..
ابدا نصعد ..
المارد هز قيود الصمت ..
اطلق عينيه لكل النور ..
لم تبق سدود تمنعنا عن خوض الموت ..
لن يشعل زيت بلادي ابدا ليلات التاميز ..
لن تساقط هذه الظلمة الا بالظلمة ..
لن يتفجر نبع النور لغير مغاوير القمه .
فليشهد تاريخ العالم ..
مولد انسان ..
يتحدى ليلات الرعب ..
ويغني اغنية سلام ..

***

سأراك غدا ...
ومعي اغلى ما تركته الايام ..
شيئان أثنان ..
عينان .. وايماني بالغد ..!

القاهرة — فاروق شوشة

بقدميه ، ليقدر لهم بعد ذلك ان يعيشوا بلا ضمائر ، بلاحس بلا انسانية .

... ومد ابو خلدون يده فأخرج منديله من تحت الوسادة ، ومسح سيل العرق الذي كان يتدفق من سالفيه الاشيبين ، وينبحس من جبينه العريض ، ثم اعاد المنديل الى مكانه ... وتابع :

« ... ولم يطل الصراع الذي أثاره خلدون في نفسي ، لم يطل كثيرا ، فلقد صممت انا ايضا على امر ... قررت ان اكون الى جانبه ، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

وبعد ساعة كنا معا وراء المتراس . في يده هو رشاش يلمع تحت وهج الشمس ويتألق ، وبين يدي انا بندقية المانية الصنع ، وعزم ينفض عني الخمسين التي احملها في تجاعيد وجهي ، ويحررني من اثقالها الرازحة على كتفي.

وفي الخندق لم نتبادل أية كلمة خلال ست ساعات ، ولكن بصري لم يكن ليتحول عنه الا عندما كان يفاجئني وانا التهم ملامحه بنهم شديد آكل .

لقد كنت اقول في نفسي : ما تراها تكون تلك القوة السحرية التي حولت هذا الفتى الناعم من قطعة اليفة وديعة ، الى كتلة من تصميم وعناد وحزم ؟ ثم انتبه لتفاهة السؤال ، فأنحيه من ذهني سريعا ، واتشاغل عنه بتأمل العروق النافرة في زندي ، واصبعي الغليظ الذي يجثم حذرا بالقرب من زناد البندقية ، وتنط الى ذاكرتي دونما ارادة مني ، تلك الانفعالات الرهيبة التي قرأتها ذات مساء في وجه خلدون ، عندما سمعنا ، صرخة حادة مبتورة كصرخة البجعة ، فاطللنا من النافذة ، لتقع ابصارنا على جارتنا ام سعيد ، وهي منكبة على حاجز الشرفة دونما راس .. وخصلة من شعرها الابيض تلتصق بالجدار القريب ... فيعبث بها النسيم ، وتندلق عليها اشعة الشمس الغاربة بفتور ، وتتناثر حولها بضع نقاط شحيحة من الدم :

لقد كانت المسكينة تتكيء على حاجز الشرفة ، فرآها البرابرة ، واعجبهم الصيد ، فاصطادوها . اقتطفت احدى قنابلهم راسها ، ودحرجته الى الشارع ، فظل يتدحرج كالكرة ، حتى استقر عند المنعطف ، راعف الجروح شاخص العينين ، نحو السماء الكئيبة ، العابقة برائحة البارود ، ودخان الحرائق ...

وردني من شرودي هدير مصفحتين كانتا تقبلان علينا من بعيد ، وصفارة قائدنا وهي تعلن حالة التأهب ، اي اقتراب اللحظة المرة ، اللحظة المتوترة التي تفتتح موسم الدم ...

... وسيطر على المتراس جو من الترقب المنهك ، والصمت الحبيس ، واشرأبت نحو الشرق ومن بين أكياس الرمل المكدسة، عشرون فوهة لعشرين بندقية ورشاش ، وتلفت في هذه اللحظة الى خلدون التهم كالعادة ، ملامحه ، آكلها بعيني فلا اشبع .. ولا ادري لم اغتبته فيما بيني وبين نفسي ، فبدا لي رغم الصرامة التي اقراها في عينيه ، انه ما زال ذلك الفتى الرقيق الدقيق ، الفتى طالب الحقوق الذي لا يصلح الا لان يجلس امام طاولته ، فيضع راسه بين يديه ، وينكب على كتبه الحقوقية .

... وفاجأني استرق البصر اليه ، فاحمر وجهه خجلا، وارتبك قليلا ، ولكنه لم يلبث ان عثر على مبرر لارتباكه ، فمال علي يهمس :

ـ لكم اشعر بالمرارة لانني اجد نفسي مضطرا لقتال اخوة لي أعماهم الضلال . لقد دربهم المجرم ، على السفك ، واستطاع ان يوقظ الوحش الغافي في اعماقهم ، ان يطلقهم من قيود الاعتبارات الوطنية والانسانية جميعها ، ان يحرجنا فلا يدع ، لنا من مخرج الا ان نواجه الماساة ، ان نواجههم بالنار ... ان نقتلهم عند الحاجة .

وسكت ... فالمصفحتان ما زالتا تقتربان ، وهديرهما المستفز يشد كل عضلة فينا ، حتى التمزق ، والاوامر تقضي الا نبدأ نحن التحرش ، وان نترك للمتاريس العدوة القابعة على مئات الامتار منا ، ان تختار هي بنفسها زمان المعركة . ولحظة العدوان .

... وما هي الا لحظات حتى عصفت بالجند الشمعوني شهوة الدم ، واخذتهم بعنف جنوني نوبة من هستيريا الفتك، فراحوا يصبون على خطوطنا طوفانا من اللهب والحديد ، وظلال الموت ، وكانوا لا يميزون بين ثائر وبريء ، بين منزل آمن ومعقل ثوار ، بل يمطرون برصاصهم النوافذ والشرفات والمدارس ، والمعابد ... وكنا نحن قد صممنا على ان نردهم على ان نموت دفاعا عن حينا ، عن شرف هذا الحي ، ثم عن كرامتنا كمواطنين وحقنا في الحياة كبشر .

وبلغت المعركة اوج ضراوتها عندما توقفت المصفحتان عند مفرق « النويري » ، وبدأتا قصفهما الوحشي .

من يصدق يابني ان الايدي التي كانت تصوب ... هي ايد من لحمنا نحن ودمنا ؟

من يصدق ان الذين كانوا يهاجموننا هم مواطنون لنا يعيشون معنا تحت هذه الرقعة الصغيرة المشرقة من سماء الله ؟

من يصدق انهم لا يقتلوننا الا لاننا نريد لهذه الرقعة الحبيبة ان تظل ملعبا للهواء النقي ، ومدى رحبا لراية الحرية ؟

... وكز ابو خلدون على اسنانه بشدة ، وتململ قليلا، وتأوه بحرقة ، ومسح من جديد عرقه المتصبب ، ثم استأنف :

... ووقعت احدى القنابل امام متراسنا ، وتناثرت شظاياها في كل اتجاه ، وانعقدت فوق رؤوسنا سحابة كثيفة من الدخان والغبار ، ومن قلب هذه السحابة انطلقت صيحة مرة :

.. ـ آخ ... لقد قتلت ـ .

وتلفت الى يميني . انه جارنا محي الدين ، الا تعرفه ؟ الا تعرف سائق التاكسي ... الفتى الذي تعرف الحارة كلها مرحه ، مرح البرعم الذي يفتح عينه ذات صباح على شباب الربيع وعبقه وانسامه :

لقد كان المسكين يتكوم فوق رشاشه كتلة من اللحم المجبول بالدم ، وكان رشاشه يثوي تحته ، وكأنه يتبرم بعيه الاليم ، بجو الضياع الذي يلفه ، ويغلقه بكآبة الذهول ، ومرارة الصمت .

... وانفجرت قنبلة ثانية وثالثة ورابعة ... واختلط الدوى الرهيب بأزيز الرصاص وعويله ، واستجمعت وعي المبدد ، وتلمست « حبتي الرمان » اللتين كانتا تتدليان من حزامي ، وخيل الي انهما تتململان واني اسمع عتابهما قاسيا مزلزلا ، فوثبت من حفرتي ، ولكنني ما كدت اقف على قدمي حتى شدتني الى الارض يد قادرة عتية ، والتقت عيناي بعينين سوداوين هادئتين بعيدتي الاعماق ، وقرأت في اغوارهما مزيجا عجيبا من التمزق والضراعة والتصميم البطولي .

وقال خلدون بصوت حازم مهموس :

ـ دعني انا للمهمة .

ولم ينتظر موافقتي ، لم ينظر الى عيني ، وما تلبد فيهما من جزع عليه ورعب ، بل شد على كتفي وغمغم :

ـ ابق هنا ، فسأعود بعد لحظات .

وقبل ان ينطلق ، هدرت في الجو قذيفة ، واقبلت نحونا تزمجر كالرعد .

لقد تعمد المجرمون ان تقع وراء المتراس هذه المرة ، فلا يصد شظاياها ما نتحصن وراءه من أكياس الرمل ، ونجحوا ، فها هي تنفجر على بعد امتار منا ، وها هي احدى شظاياها تئز ، وتنقض لتمزق ساقي بضراوة .

وينكب خلدون علي ليلم لحمها المتناثر بمزقة من قميصه ، ثم ليسلمني بعد ذلك الى الرفاق ، ويثب ، وقد عصفت به نوبة من الحقد المدمر ، أفقدته هدوء اعصابه ، وذلك الصفاء الذي كان يجمع كل احلام الدنيا واعراسها في عينيه .

... لم يصغ الى توسلاتي ، بل تخطى جدار النار ، وظل يزحف ويزحف ، والرصاص حواليه يتناثر ، وبنادق الرفاق ورشاشاتهم تحمي زحفه ، حتى اذا ما اقترب من احدى المصفحتين المسعورتين رشقها ، بقنبلة يدوية ، فجرتها ، ومزقتها ، واعملت فيها السنة اللهيب .

وفي قلب سحابة كثيفة من الغبار والدخان استمر يزحف نحو الثانية ، وبدا لي ، وهو في الطريق اليها ، كأنه يترنح . ترى هل اصيب خلدون ؟

.. وغامت عيناي ، واختلطت الصور في رأسي ، وتداخلت المرئيات بالتصورات ، وخيل الي اني اغرق في بحر من الدم ، بحر يتدفق من ساقي ، ويمتد هادرا ، فتعصف أمواجه القانية بخلدون ، تقذفه بضراوة ، نحو اللا نهاية ، ثم تعدو في اثره كالوحش الجائع ، فتشده من اطرافه وتبتلعه . تغيبه في اعماقها ، وتسترخي كأن شيئا ما لم يرسب في هذه الاعماق ، ولكن المد الرهيب لا يلبث ان يعود ، وجسما احمر ملتهبا كقرص الشمس لا يلبث ان يطفو ، وسرعان ما تتحلق حول قرص الشمس الاحمر عرائس بحرية تعصب رؤوسها بشرائط ارجوانية ، وتسحب وراءها جدائلها الشقراء ، وزغاريدها الفستقية .

واجهد نفسي لكي الحق بقرص الشمس الاحمر ، فأعدو وراءه بكل ما اوتيت من قوة ، ولكن الوحل اللزج يسمرني في مكاني ، ولا يبيح لي ان اقتلع رجلي من مغرسهما ويلهبني التحرق الى ان المس بأناملي جدائل الحوريات ، ولكن اناملي لا تتحرك ... يالله ... انها جامدة ، جامدة ابدا كأنها انما قدت من زجاج ، او سكبت من جليد .

وتنطفيء الصور في رأسي فجأة ، ويطمس الظلام ذهني ، واحس كأني ادخل في ليل ابدي ، لا غور لظلماته ولا ابعاد ، ثم لا ألبث ان افقد ، حتى الاحساس ، بهذا الليل نفسه ، وبظلماته .

وعلى هذا السرير افقت في اليوم الثاني ، والى جانبي احد رفاق المتراس ، وخيط رفيق رقيق من شعاع الشمس .

ولم اكن بحاجة لان اسال رفيق السلاح عن بقية القصة ، فلقد قرأت في عينيه الكئيبتين الذاهلتين هذه البقية ، ولكنني مع ذلك تجالدت ، واستحلفته ان يقص علي تفاصيلها .

وبعد تردد قال الرفيق : ان خلدون اصيب برصاصة في كتفه وهو يتقدم نحو المصفحة الثانية ، وعندما اصبح على امتار قليلة منها ، اخترقت صدره رصاصة اخرى ، فهوى الى الارض ، ولكنه له يلبث ان تحامل على نفسه ، فنهض بنصف قامته ، وانتزع من حزامه قنبلة ، فعالجها بأسنانه ، فيما كانت يسراه تشد على جرح صدره ثم قذف بها باعياء ظاهر ، فوقعت على برج المصفحة .

وحين كانت أجزاء المصفحة تتطاير في كل اتجاه ، كان هو يتكوم على نفسه بهدوء ، ويتتبع بعينيه الراضيتين المطمئنتين جدول الدم الصغير الذي كان يسيل مع انفاسه الاخيرة ، وينزلق على الاسمنت امامه .

... وتململ ابو خلدون كأنه يريد ان يتفلت من أشجانه التي تعيش في أغواره ، ومد يده فأخرج منديله من تحت الوسادة ، ومسح سيل العرق الذي كان يتدفق من سالفيه الاشيبين ، وينجس من جبينه الواسع العريض .

وكأنما خشي ان تغلبه الدمعة الكبيرة التي اغرقت قلبه ، وفشلت في الوصول الى اجفانه ، فرنا الى رجله المرفوعة الى اعلى ، ثم الى الكتلة الحديدية الثقيلة المدلاة منها ، وابتسم لي برقة وغمغم ، وهو يغرز اسنانه بشفته السفلى :

ـ ترى ، اما كان اهون علي لو قطعوها ؟

احمد سويد